الرحلة المغربية

قضايا وظواهر

تنسيق و تقديم :

الأستاذ الدكتور: لحسن حشلاف

تأليف :

مجموعة من الباحثين الأكاديميين

دار الضحى للنشر والإشهار

الطبعة الأولى 1438هـ / 2017م

الرحلة المغربية

قضايا وظواهر

تنسيق و تقديم:

الأستاذ الدكتور: لخضر حشلاف

تأليف:

مجموعة من الباحثين الأكاديميين

الطبعة الأولى

1438هـ / 2017م

دار الضحى للنشر والإشهار

الجلفة – الجزائر

Dareldouha2014@gmail.com

027.92.24.92 / 07.74.93.36.70

الطبعة الأولى

1438هـ / 2017م

الإيداع القانوني: السداسي الأول 2017 DL 1ère Semestre

ر.د.م.ك: ISBN 978-9931-637-10-3

حقوق التأليف محفوظة للمؤلفين

تصميم الغلاف: أ. كعيب بوقرة

رتّبه وأخرجه للطباعة سعود نقموش

m_nakmouche@yahoo.fr

messaoud.nakmouche@gmail.com

تقديم

أحمدك اللهمّ يا من يسرت لمن أمَّ بيتك من الرّواحل تخوم المسالك، في جزع اليوم الشّامس واللّيل الحالك، فالعَبدُ عَبدُكَ حَقّاً وَابنُ عَبدَيكَا لك الحمد يا ملك الملوك والممالك. يا من جعلت لهذا الدين رجالا أمناء شرفاء، تحملوا بجدهم وعْثاء التّرحال والمهالك، فركبوا السَّهْل والخطَر لتقفي مرآة الأعاجيب وقسطاس التجاريب، لا يُثْنيهم عن عزمهم مُكابدة البحار والقفار، ولا قلة المعين والرفيق، فأحييت بهم يا كريم سُنن الهدى، ودفعت بهم أهل الزيغ والرَّدَى، فأضحوا قناديلاً يُهتدى بها.

أما بعد:

يعتبر فعل التّرحال في الأرض من السّنن الغابرة التي يدعو إليها الذكر الكريم، وذلك في سورة العنكبوت: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللَّهُ يُنشِئُ النّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾، فالرّحلة ضرب من ضروب النّشاط البشري، إذ إن الإنسان منذ أن دب على هذه الأرض، وهو مجبول بين الفينة والأخرى أن يكون ككائن سندبادي يحاول اكتشاف كنه ذاته وبيئته حتى يتسنى له فهم الحياة الآدمية بشكل يسمح له بالتّأقلم مع متطلباتها. وقد كان للعرب في الجاهلية رحلاتهم التجارية، حيث احتلت الرحلة المرتبة الثالثة بعد بكاء الأطلال والنسيب. ولم تكن السنة النبوية بمعزل عن قطائف الرّحلة والتّرحال، فعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ- : "لا تشد الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى."

و قد انطبق التّرحال البشري في المشاتي والمصائف عند عديد من الأمم السابقة كالفراعنة والرومان والفينيقين... وغيرهم، فقرب شعوبا من شعوبٍ ناءت عن بعضها، ونحن في مقامنا هذا معنيون بالتوجه إلى الحديث عن الرحلة عند العرب وتحديدا عند المغاربة هؤلاء

الذين ارتحلوا... وعليه فقد ارتحل المغاربة فرادى وجماعات إلى المشرق لأداء فريضة الحج واغتنام بعض الوقت في التّقوت بآصرة العلم والدّين والمعرفة من أجلة العلماء وأهل الدّراية والنّوابغ، فكان العلماء والفقهاء يشدّون الرّحال إلى الحجاز الذّي كان يمثل باحتوائه على الأماكن المقدسة (المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة) قلب المشرق العربي. إذ كان البلد الحرام خير بقاع الأرض ومطمح الآمال ومهوى الأفئدة من كل حدب وصوب، لهذا فقد تواتر التّرحال وانثال أهل العلم والفقهاء والأدباء على المشرق، فلم تعقهم براثين الدّياجير الحوالك بين دروب البر والبحر، فمنهم من ارتحل من نفسه ومنهم من اضطرته الظروف والمقادير إلى تغيير المنزل والتّرحال المستمر، بحثا عن سبل العيش والبقاء. حتى أضحت الرّحلة عِوَلاً وعَوَصاً، وكانت سمة مميزة في حياته، وتوسع العرب برحلاتهم على مدى الدّهور حتى بدت الحياة، وكأنها رحلة دائمة لا تتوقف إلا على تخوم الأزلية مما يدل على التّلازم المتين بين الحياة البشرية والرّحلة هاته الأخيرة التي على أعقابها ومقاصدها أدى المسلمون النّسك، فكان منهم علماء ورحالة جدوا في استزادة العلم وطلبه من كل ذي فصلٍ وفضلٍ وورعٍ؛ وبذلك التقت فيها شهب الروحي الديني مع زاد المعرفة والعلم، فألفت فيها كتب كثيرة في وصف الرحلات إلى البيت العتيق، ففريق ألحقها بكتب المسالك، وفريق آخر دمجها في نثرٍ فائقٍ وفريق آخر جعلها ديواناً وشعراً سَالِكْ تطرق به وعلى هديه إلى سبل الممالك واستل بين ذلك نصيع التّجارب والمِرَاس، ومرت الرّحلة والتّرحال على حال وحال حتى تقولبت كجنس أدبي يقف على عتبات الوصف ودواخله، حيث ساهمت الرحلة إلى حد بعيد في إثراء الفكر والإنسانية وتطورها أين كانت الرّحلة فيما مضى معول بناء للتّطور الثقافي والحضاري.

والملاحظ بعد تقفينا للتّمثلات البحثية ضمن هذا الكتاب وفرة عدد الرحلات المغربية، إذ تطالعنا في العصور الوسطى رحلة العبدري ورحلة ابن رشيد الفهري، ورحلة ابن بطوطة... الخ، وتستوقفنا بين ثنايا العصر الحديث رحلة كل من العياشي ورحلة الرّافعي التّطواني... وغيرها من الرّحلات المغربية التي انتعشت في العصور المتأخرة والتي تنتظر همة

كبيرة للكشف عن ما فيها من قيمةٍ بهيةٍ، فالرحلات قشيبة بعالمها، مشرقة بحصاد فرسانها، نستنشق فيها عطر الصحاري، في تناقضاتها وتحولاتها، وفي إيقاعها وسكونها الذي استل جوهر الحياة وكنهها، فتجلت بعظمتها المفرطة انبهارا تحت سماء الأدب. إذ تتمثل أهمية كتب الرحلات في أنها تفضي بزادها الوفير إلى تشكيل صورة ذهنية بانورامية خلفها شهود العيان الذّين عاينوا التّرحال والمرئيات والمشاهد والماديات... بعين البصيرة فناءوا عن كثير من الألفة والعادة بهندسة رحلية تعنى بالعمق في تناول القضايا الإنسانية على اختلافها، وتنوع تمفصلاتها، حيث يعنى الرّحالة بكل تفصيل يخدم رؤيته ومرجعيته وقصديته بالدرجة الأولى، غير أن ما يدمي القلب ويؤجج أحزانه، وبحق هو التهميش والإهمال الذي طال، ولا يزال ينهش ببراثنه صفحات المدونة الرحلية التي ضاع كثير من نصوصها بين غياهب صمت رهيب يعتصره الجهل الذي كنز التّراث في رفوف الخزائن، فلم نجن من مكنوناتها الوضاءة إلا نزْرًا يسيرًا.

فاليوم تعد الرّحلة المغربية من أهم الرحلات في تراثنا العربي لما لها من أثر في ترسيخ جملة من فعاليات التّواصل الثقافي والحضاري بين أفراد المجتمعات، فلقد عكف الرّحالة المغاربة كغيرهم من الرّحالة العرب على تجميع ثروة معرفية حضارية مشوقة تناثرت كَطَّحَا الشَّغَفِ في حفرياتهم الرّحلية النفيسة، حيث جدوا في سبك شرائطهم الرّحلية وتجويد أسلوبها، واستلال الحقائق ببحرها وعجرها في رحلة تعنى بتطويق أمشاجها، وتنظيم عقودها، وتسييج مفرداتها وتجزيل معانيها، وتشحيذ فكرها ومعارفها، وتدبيج فقراتها وافتضاض أسرار الذّات والحياة والكون في طي الأضابير العارمة الراقية التي تسمو بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى ضفاف الجمال الفني بأزكى الجَنَى من منقولها ومعقولها بين شذى الحرية ومسارح النظر المؤنقة بإفصاح يغني عن الإيضاح مما ينم عن أسلوبها السهل الممتنع المنبثق من دقة الوصف وحسن السرد وحلاوة البيان، وخفة السجع المطرز بشيء من العج، حيث درأ جل الرحالة المغاربة زمر التصنع اللفظي وبراثين التعقيد المعنوي وأوجه السّمج، فكانت رحلاتهم عقدا نفيسا في جِيدِ التاريخ، وغرةً ناصعةً بحَصَافَتِهَا وفَصَاحَتِهَا وصَفَحَاتِهَا الغرةِ

بأطياف وضروب من المعارف التّاريخية والاجتماعية، والسّياسية والجغرافية والفقهية واللّغوية والأدبية.. حتى أضحى أدب الرّحلة يمثل رافدا من روافد الأدب العربي على مر التاريخ ومصدرا مهما لمعرفة ما ينبجس من أواصر الرّحالة مع ذاته من جهة، وعلاقة ذاته مع الآخر من جهة أخرى، فكانت الرّحلة كروضة فريدة تتراوح في عوالمها الأدبية وغير الأدبية كل نفحات العطاء والجد والقيم الرّوحية والمشاعر الإيمانية، وبعض تمثلات التّجارب والخبرات الإنسانية المرصعة بنتوءات من الطّرافة والمتعة والنّوادر، حيث أضحت الرّحلة المغربية في تمازج مضامينها كبوتقة للفنون والمعارف تضم ألوانا من مجاميع الفنون، إذ باتت تحتكر هذا، وتتمرد على ذاك لتبني تشكلها المجهول الذي بات ينفث بزخره العجائبي والغرائبي وعمقه الثّقافي والاجتماعي... طفرات بين ثنايا الخُبر والخَبر تموج جموعها وتتراص قبابها على مشارف المساءلة والنّقد.

وعليه فقد حفل تراثنا الأدبي الرّحلي في عصوره الأولى بظواهر وقضايا ترسي بأبعادها المختلفة تفوق العقل العربي في مجال الأدب، غير أن الخطاب الرّحلي باعتباره جنسا في مصاف النّثر لم يجد الاهتمام والعناية اللّازمة كتلك المبالاة التي تلقفت جنس الشّعر، حيث إن النّقاد لم يهبوا للنّثر ما وهبوه للشّعر من الاهتمام...، فأضحى الشّعر في نظر النّقاد أكثر حظًّا من النّثر بالرغم من أن هذا الأخير احتفل بفيض من الإتقان والتجويد، إلا أنه لم ينل من منزلة الشّعر؛ ولذلك قلت العناية بتقييد أوابده، وهذا الأمر العلقم الحنظل الحاصل يدعو بإلحاح إلى ضرورة أن نتفيأ ظلال كتب الرّحلات المغربية الحجازية بعيدا عن الاختلافات الواردة ضمن الرّحلات في الاتجاه والتقدير والنّزعة، فننهل من معانيها النّادرة ونعب من مكانزها، وننتقي من فوائدها، ونقتنص من دررها من خلال تقفي قيمتان عظيمتان: قيمة علمية تنبثق منها مختلف الأطر التّاريخية والجغرافية والاجتماعية... تلك التي تدخل ضمن نطاق الظواهر، وقيمة أدبية تتوهج في معمار الرحلة الشكلي والمضموني، فلقد أضحت تلك المُشاهدات والمرئيات والأوصاف... مرجعا أساسيا ينبجس من منابع ثرة تتلألأ فيها كل معالم الأصالة والعراقة.

لقد حقق الأدب الرّحلي بحصاده الفكري والمعرفي تراثا راقيا ينم عن أبعاد التّثاقف والتّفاعل والحوار، حيث جاءت الرّحلات في أبهى صورة خلاقة يرسمها طيف الإشعاع الحاصل بين الثّقافتين المغربية والمشرقية، إذ تغطي نصوص الرّحلية الحجازية عشرات القرون تنوب عن القرون السّالفة التي ضاعت نصوصها. فكانت بمواضيعها وامتدادها مثالا يحتذى به وبحق؛ لكونها تمثيلات فيها ما فيها من زمر الصدق، وهمس العفوية، وأدب النّقد، ووعي التّثاقف...، وبذلك فإنها التاريخ الفعلي للصّلات الوطيدة، على مرّ التاريخ، بين المغرب والمشرق من خلال تلك العلاقات المعقدة التي تشكلت صورة مشرقة وجسراً للعبور إلى الروح والذات والهوية.

ولذلك جاءت هاته الخطوة النبيلة، وكانت النفس تواقة لدراسة الأدب الرّحلي المغربي باعتباره معلم ومصدر إشعاع ثقافي وحضاري، إذ إن أهمية الدّراسة في المدونات الرّحلية لا تتأتى من كونها تسجيلاً لمراحل سفر أو لتأريخ أو جمعًا لنماذج أدبية، وإنما تأتي الأهمية من كونها نصوصا للهوية والعروبة، وكأن هناك رُوحًا واحدة تدبُّ في مختلف المدونات الرّحلية القيِّمة فتدوي بزمجرتها كل قارئ يئن للأصالة العربية العريقة في أبهى حلة لها، وذلك ما أكدته دراسات هذا الكتاب من خلال تنقُّل القَائِفِ القَوَامِ بين دروب فن الرّحلة التي سيظل أرضاً بكراً للأبحاث والتحقيق...

ويأتي هذا الكتاب كسجل حافل بالأبحاث التي لها نكهتها في تقصي درر لا يعاق إشعاعها المتأصل في شفرات الهوية والانتماء، إذ يتوخى غايتين، أولهما محاولة إلقاء الضوء على تاريخنا وتراثنا العريق وأعلامنا ودور بعض البلدان العربية في تحقيق النّهضة العربية الإسلامية على امتداد الزمن، وكذا الإسهام في الكشف عن زوايا من الفكر والمعرفة والأدب والتّاريخ في الحفريات الرّحلية، حيث إن الحديث عن الرّحلة في نظرنا حديث عن ذاكرة جماعية تراثية مطمورة في غياهب المدونات الرّحلية التي أغنت وأثرت الفكر الإنساني في أكثر من بعد.

وثانيهما محاولة التّعريف برحلات المغاربة، وتحديدا تلك التي انطلقت من المغرب، ولذلك يعنى الكتاب بالدراسة والتّعريف والتّحليل واستخلاص نتائج، حيث تنوعت المناهج التي توسل بها الباحثون بين الوصفي والتّاريخي والتّحليلي... في محاولة لتقصي الأغوار والنّفاذ إلى ما تشتمل عليه الرّحلات من فسيفساء فكرية ومعرفية، حيث إن الرغبة في تقديم ما يتعلق بنصوص الرحلة وأصحابها هي التي وجهت ورسمت معالم الكتاب وحددت محطاته التي تعنى بفن الرّحلة من خلال النّفاذ إلى مضمونه ومطموره وحيثياته وقضاياه وظواهره، وما يدينه واتجاهاته ورواده من المغاربة كما لم يكن هذا الكتاب في معزل عن رصد أهم أسباب الانتعاش والفتور.

وأخيرا فإننا نعتقد أن هذا الكتاب هو محاولة متواضعة لحث الدّارسين وإثارتهم واستفزاز عقولهم للإقبال حول التراث ولا سيما فن الرحلات الغنية بالعوائد والفوائد، بما تقدمه من زاد فكري حيث أثرت ولا تزال تثري المكتبة العربية بمصنفات ثرّة نزرة ترفد أجيالاً وأجيالا، وتلهمهم تراثنا الأدبي والثقافي والتاريخي. وكلنا رجاء أن يحظى هذا الكتاب باهتمام الدّارسين والمهتمين. و أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة في ميدان البحث العلمي والتعريف بالتراث العربي الإسلامي.

والله نسأل حسن التوفيق والمعونة على ما نرضاه من قول، وأزلف لديه من عمل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ. د حشلافي لخضر

الوثائق ببصيرة نافذة وبشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي عند معالجة النصوص. "وقد كتب المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي أن جغرافي العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركو بولو البندقي، وأن أخبار رحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعا وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطورا في كتب العلماء اليونان وجداولهم، وأن علمهم الذي ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختيارا ونقدا وأكثر في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقي العظيم ماركو بولو"[1].

1- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، د/ زكي محمد حسين، دار الرائد العربي، لبنان، 1981، ص: 180.

الرحلة المغربية، التعريف والتأسيس والأنواع

- الدكتورة: جميلة روباش
جامعة محمد بوضياف - المسيلة -

- **مفهوم الرحلة:**

إن الحديث عن الرحلة يقتضي التفريق بين أمرين أو معنيين:

1 - **التعريف اللغوي:**

الرحلة حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة؛ ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت395هـ) : "رحل: الراء والحاء واللام أَصْلٌ واحِدٌ يدل على مُضي في سَفَر. يقال: رَحَلَ يَرْحَلُ رحْلَةً (...)، والرِّحْلَةُ: الارتحال (...). وَرَحَّله، إذ أَظْعَنَه مِنْ مَكَانِه"[1]، وعند ابن منظور (ت711هـ)، (رَحَلَ الرَّجُلُ إذا سار، ورَحُلُ رَحُول، وَقَوْمٌ رُحَّل؛ أي يرتحلون كثيرا، ورَجُلٌ رحَّال: عِالمٌ بذلك ومجيد له (...)، والترحّل والارتحال: الانتقال، والرّحلة: اسم للارتحال، وقال بعضهم: الرِّحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده". [2]

(1) أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط، عبد السّلام محمد هارون، ج2، ط2، (مادة رحل)،، دار الفكر، سوريا، 1979، ص497.

(2) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف، ج3 (مادة رحل)، (د. ط)، (د. ت)، القاهرة، ص1608.

وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي: "ارتحل البعيرُ: سار ومضى، والقومُ عن المكان: انتقلوا، كتَرحَّلُوا والاسم: الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال؛ وبالضم: الوجه الذي تَقْصِد، والسفرة الواحدة". (1)

وتكاد المعاجم الأخرى تكرر المعاني نفسها، وبهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى رحلَتي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾. [سورة قريش، الآيتين: 01- 02].

تُجمع معاجم اللغة على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر، وبهذا المعنى يكون العديد من المغاربة وغيرهم من البشر قديما، قد أنجزوا رحلات لا تعد ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة وطبيعة البشر، إلا أنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته.

إنّ المعنى الأول يتأسس عليه المعنى الثاني.

2 - التعريف الاصطلاحي:

الرحلة كتابة يحكي فيها الرحّالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وإنجاز الرحلة - كتابتها- يتطلب أن يكون الرحّالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، والرحلة بهذا المعنى أي بما هي كتابة وخطاب حل اشتغال واهتمام الباحثين بها. ولابد لكل رحلة مكتوبة من سفر حقيقي وفعلي، ولا يمكن تصوّر كتابه رحلية دون رحلة إلا في الرحلات الخيالية، ك: "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري (ت449هـ)، و"رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد (ت426هـ)، و"التوهم" للحارث المحاسبي (ت243هـ). وإن معنى الرحلة كتابة وهو ما يسميه الباحث سعيد يقطين: "خطاب الرحلة"، ويعرّفه بأن عملية تلفيظ لفعل الرحلة،(2) بينما المعنى الأول هو الرحلة ذاتها، ولهذا نجده يتحدث

(1) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005، ص 1005.

(2) سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص200.

عن الرحلة وخطابها، ويرى أن خطاب الرحلة "يتماشى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية"[1]، فيبدأ الخطاب من لحظة الخروج وينتهي لحظة العودة.

إن هذا الخطاب إذًا يواكب انتقال الرحّالة في أماكن متعددة ومختلفة، واصفا إياها جغرافيًا وعمرانيًا واجتماعيًا وبشريًا، وذاكرًا ما لقيه من رحالات العلم والأدب وما دار في مجالسهم من مناقشات، إضافة إلى ذكر كثير من الفوائد العلمية والتاريخية والأدبية، والرسائل والإجازات والأشعار، وكل ذلك يسوقه الرحّالة في أساليب مختلفة، ممّا يكسب الخطاب الرحلي تعقيدًا تطرح معه قضية تجنيسه.

- أولا: تجنيس الرحلة:

تختلف غايات ومقاصد الباحثين المحدثين في تناول الرحلات ومقاربتها، وذلك لتنوّعها وتداخل الحقول المعرفية العديدة فيها، من جغرافية، وتاريخ، وحضارة، واقتصاد، وإثنوغرافيا*، وسيوسيوغرافيا**، وأنثروبولوجيا*، وفن، وأدب...، وإن طغى في كثير من البحوث والدراسات- اتجاه يرى أن ارتباط الرحلة بالفن والأدب أكثر وضوحًا، فتصنيفها ضمن الأجناس الأدبية له ما يبرره ويزكيه من صيغها التعبيرية وأساليبها الفنية[2]، إلا أننا نرى أن ضمها لحقل معين وجنس مخصوص إهمال لطبيعة وخصوصية هذا النوع من الكتابة الذي يزخر بالمضامين والموضوعات العديدة علمية وأدبية وفنية، مما حدا ببعض الباحثين إلى التعامل

---

(1) المرجع نفسه، ص200.

(*) إثنوغرافيا: هو علم وصف الشُّعوب وهو أحد علوم الإنسان وينصبّ على دراسة المظاهر المادّيّة للنشاط الإنسانيّ من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس.

(**) سيوسيوغرافيا: علم الاجتماع هو دراسة الحياة الاجتماعية للبشر، سواء بشكل مجموعات، أو مجتمعات، وقد عرّف أحياناً كدراسة التفاعلات الاجتماعية.

(*) أنثروبولوجيا: هي علم الإنسان، علم يبحث في أصل الجنس البشريّ وتاريخ تطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته وعلاقاته وتوزيعه الجغرافيّ، وفي السُّلالات البشريّة وخصائصها ومميّزاتها.

(2) هناك مؤلفات وأبحاث غلّبت الجانب الأدبي في الرحلة منها: شوقي ضيف الرحلات، فن الرحلة، أدب الرحلة...

مع الرحلة على أنها خطاب مخصوص له منطقه الذاتي، وبناؤه ومكوّناته وعناصره[1] يتتبع العادات والتقاليد والتأثيرات الإقليمية[2]، ويحتوي على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والأدب.[3] ومن هنا فالتركيز في تحديد هويتها على جانب الصياغة الأدبية والفنية يعد تعسفا منهجيا، لا يتناسب مع مكونات النص الرحلي وطبيعته الخاصة؛ فالاعتماد في دراسة الرحلة على المقاربة السردية وحدها إلغاء لطبيعتها المتّسمة بالغنى والتنوع والانفتاح على الحقول المختلفة، ذلك أنها وإن توسلت أسلوب الحكي والسرد أحيانًا، فالأحداث والمواقف والأشخاص فيها غير مختلفة، كما هو الأمر في النصوص السردية، إذ أن ما يحكيه الرحّالة أو يسرده، يقوم على أرض الواقع ويتركز على المشاهدة والمخاطبة لا على التخيل والافتراض.

وإذا كان الاقتصار على الصياغة وحدها في دراسة الرحلة قد لا يسعفنا في النفاذ إلى كنهها وحقيقتها، فإن تغليب الجانب المضموني في مقاربتها وإلغاء ما عداه محفوف بالمخاطر أيضا؛ ذلك أن الرحّالة لا يقدم معلوماته وملاحظاته بحياد وموضوعية، كما هو مطلوب في التناول العلمي الصارم، ولكن في أوصافه وملاحظاته بعضٌ من وجدانه ومزاجه وأحواله وذاتيته، بل أن الرحلة إذا لم تكشف لنا عن هذه الذاتية فالأولى أن تسمى دليلاً سياحيًا.[4]

يصرح تودوروف بأن "مشكل الأجناس هو أحد من أقدم مشاكل الشعرية، وقد طرح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا (...)، فتعريف الأجناس، وعددها، والعلاقات المتبادلة بينها، لم يتوقف النقاش حولها قط"[5]، وإذا كان ذلك النقاش حول الأجناس الأدبية دائرا في الغرب

---

(1) سعيد بنسعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة، (د. ط)، كلية الآداب الرباط، 1995، ص14.

(2) سعيد علوش، المصطلحات الأدبية المعاصرة، (د. ط)، الدار البيضاء، 1984، ص57.

(3) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، (د. ط)، بيروت، 1979، ص 122.

(4) ينظر: محمد الفاسي، وحي البينة، (د. ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1970، ص70.

(5) Tzvetan todrov et Oswald Ducrot, Dictionnaire encyclopdique des sciences du langage, du Seuil, Paris, 1972, P193.

منذ القديم، فإنه انتهى اليوم بـ "دومنيك كومب" (Dominique Combe) إلى حصرها في "أربعة أقسام كبيرة من النصوص حسب الوعي "الساذج" الذي كيفية عادات القراءة، بل وكيفية أيضا التعليم والمؤسسات، وهذا ما يجعل هذه الأقسام غير طبيعية، بالمعنى الشائع لهذه الكلمة"[1]، ولهذا قسّم الأجناس إلى:

- المتخيل السردي **Fiction narrative** الذي يضم: الرواية والأقصوصة والحكاية والقصة.
- الشعر.
- المسرح.
- المقالة **(Essai)** التي تضم: الخطاب الفلسفي أو النظري، والسيرة الذاتية، والذكريات، والمذكرات الشخصية... والمراسلات، والتقارير وحكاية الرحلة...الخ.[2]

إذن، فالرحلة تندرج عند "دومنيك كومب" ضمن قسم المقالة التي هي "كل نص لا ينتمي إلى الخيال ولا إلى الشعر ولا إلى المسرح (...) فهي الجنس الذي يجمع بين كل الأجناس التي نبذتها الأجناس الكبرى، وهي بهذا "أقل الأجناس وضوحا... ومع ذلك تتميز بسمة ثابتة هي تفضيلها للنظر العقلي والأفكار، والفكر الخطابي وليس للخيال". [3]

هكذا إذًا، تتجنس الرحلة في النقد الغربي، عند كومب، أما "أغناطيوس كراتشكوفسكي" (Ignati Kratchkovski) فيصنف الرحلة (العربية أساسًا) ضمن الجغرافيا الوصفية، التي ترتبط بها ارتباطا وثيقا قصصُ الرحلات"[4]، وبهذا تصطبغ الرحلة عنده بصبغة علمية (الجغرافيا)

نقلاً عن: محمد حاتمي، "في خطاب أدب الرحلة"، مجلة فكر ونقد، عدد 87، السنة التاسعة، مارس، 2007، ص52.

(1) Dominique Combe, les genres littr aires, d. Hachette, Paris, 1992, P. P13- 14.

نقلاً عن: محمد حاتمي، "في خطاب أدب الرحلة"، ص53

(2) المرجع نفسه، ص53

(3) المرجع نفسه، ص53

(4) أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987 ص20.

وصيغة أدبية (القصص)، وهذا ما سوغ له استعمال عبارة "الأدب الجغرافي" الذي يقدّم متعة ذهنية كبرى؛ إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة، صيغت بالسجع أحيانا. والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة، والإمتاع والحيوية من جهة أخرى. وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص". [1] وإذا كان هذا النقاش يجري في النقد الغربي، فإن النقد العربي القديم كان شبه غائب، عن هذا المضمار، إذ اكتفى بتقسيم الأدب إلى الثنائية المعروفة: الشعر والنثر، وقسم الشعر إلى أغراضه، والنثر إلى الخطبة والرسالة، ثم المقامة في وقت لاحق، أما الرحلة فلا نجد لها ذكرا لدى الناقد العربي القديم، لأنها كانت تنتمي إلى الأجناس السردية. ونعلم أن الأجناس السردية (القصص والحكايات والمقامات...) كان ينظر إليها نظرة تنقصية بالمقارنة مع الشعر الذي عدّ ديوان العرب والذي أُحل الدرجة العليا. ورغم تلك النظرة التنقيصية التي نظر بها إلى الأجناس السردية، إلاّ أنها عرفت نماءً واتساعًا، واستطاعت أن تجلب إليها العدد الكبير من القراء والباحثين عن المتعة والإفادة. وقد صنف الباحث شعيب حليفي الأجناس السردية إلى "قطبين كبيرين كان لهما حضور متبادل ومتواتر هما: الشكل الخالص، والهجين.

- تضمنت الأشكال الخالصة: المقامة والسيرة والحكاية الشعبية والرحلات...
- أما الأشكال الهجينة فيندرج ضمنها الخبر والحكيات الصغرى المتفرقة، ثم أدب القيامة، والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء. [2]

هكذا يصنف الباحث الرحلة ضمن الأشكال الخالصة، وهذا التصنيف لا يوافقه عليه الباحث عبد النبي ذاكر الذي يرى أن الرحلة "شكل أدبي هجين ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته، إلى حد أنه يمكن القول: إنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطا خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل

(1) المرجع نفسه، ص28.

(2) ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية النشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص08.

مائع ومرن إلى حد كبير، إضافة إلى شدة تعقده واحتماله لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة الظاهرة، لتجعل منه جنسًا مركبًا وشموليًا وعامًا، وجنس الأجناس".[1] ويتّبع المسار ذاته الباحث الدويهي الذي يصف الخطاب الرحلي بكونه "نوعًا من التعبير الأدبي الهجين والضبابي".[2]

ويوافق الباحثين (ذاكر والدويهي) في هذا الرأي الباحث عبد الرحيم مؤدن الذي يذهب أيضا إلى أن الرحلة "كتابة ملتبسة سواء على مستوى الهوية **الأجناسية** Gémétique، أو على مستوى محاورتها- في سياق نظرية الأدب- لأجناس أدبية وغير أدبية"[3]، وهذا ما أفضى ببُول هازار إلى عدّ الخطاب الرحلي "نوعا أدبيا غير واضح الحدود".[4]

يبدو أن الرأي الأخير أكثر انطباقًا على واقع الكتابة الرحلية، لأن الخطاب الرحلي على مستوى المضامين يحتوي على معارف متنوعة: تاريخية وجغرافية ودينية وأدبية وإثنوغرافية...، وعلى مستوى الأشكال نجد فيه السرد والوصف والحكايات والأخبار والرسائل والأشعار...، وهذا الغنى والتنوع في المضامين والأشكال يسمح بتشبيه الرحلة، بفناء بيت تنفتح فيه أبواب حجرات متعددة، وكل باب يجد فيه مبتغاه، "إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل أيضًا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين واللغويين وعلماء الطبيعة".[5]

---

(1) عبد النبي ذاكر، عتبات الكتابة، مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي، (د. ط)، منشورات مجموعة البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، المغرب 1998، ص35.

(2) جبور الدويهي، الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر، مجلة الفكر العربي، العدد 32، أفريل- ماي 1983 ص59.

(3) ينظر: عبد الرحيم مؤدن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص23.

(4) عبد النبي ذاكر، الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوروبية إلى المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بأكادير، مطبعة منشورات الكوثر، الدار البيضاء، 1997، ص08.

(5) أغناطيوس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص19.

إن هذه الطبيعة الغنية للكتابة الرحلية جعلت دراستها تتجه اتجاهات مختلفة تبعًا لاهتمام الدارس، وهكذا جعلها المؤرخ نصًا تاريخياً يمتح منه كثيرًا من المعلومات الغميسة المتصلة بالبلدان المزارة، وجعلها الجغرافي مصدرًا يستقي منه ما يورده الرحّالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مرّ منها، كما يجد فيها الباحث الإثنوغرافي كثيرًا مما يورد معرفته عن الشعوب التي تحدث عنها الرحّالة، كما يجد فيها الباحث في تاريخ الأفكار ما يود معرفته عن ثقافة الذات التي يجليها الرحّالة بمقارنتها بثقافة الغير، ويجد فيها الدارس الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعًا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية عاش الرحّالة في أحضانها، ويجد فيها غير هؤلاء مبتغاهم من المعلومات والمعارف التي تزخر بها، وهذا ما أكده الباحث عبد النبي ذاكر بقوله: "لا أحد ينكر ما أفاده المثقفون – منذ أقدم العصور – من أدب الرحلات، فتنوع موضوعاتها جعلها قبلة لمنح المعلومات الجغرافية والتاريخية والشعرية والصوفية والإثنولوجية* ، الخ"[1]، وهذا كله يجعل نص الرحلة مستعصيا على الانتساب النوعي، وينعكس ذلك على التسمية التي تصبح متعثرة أو متعددة.[2]

وهكذا نجد أسماء مثل: الرحلة، وأدب الرحلة، والأدب الجغرافي، والجغرافيا الوصفية. بيد أن هذا التنوع والغنى اللذين تمتاز بهما الكتابة الرحلية ينبغي أن لا يخدعانا ويصرفانا عن البحث عمّا هو مشترك بين الكتابات التي تسمى رحلة، بحيث إن "العناصر المشتركة بين كل هذه الأنواع /الأشكال، تظل واحدة في تعددها، تتعدد أسلوبيا وتتخذ أوضاعا شتى في

(*) الإثنولوجية: هي علم الأجناس البشريّة وخصائصها وأخلاقها وتفرّقها.

(1) عبد النبي ذاكر، عتبات الكتابة، مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي، ص14.

(2) عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، 1993، ص127.

السياقات الموضوعية لها"[1]، ومعرفة هذه العناصر المشتركة "يقلص من دور المصادفة، ويقدم لنا، بقدر كبير، قواعد إنتاج النص، وقواعد تلقيه في آن معا". [2]

انطلاقا مما سبق، يمكن لنا الحديث عن الرحلة بعدّها جنسًا أدبيًا قائم الذات له مميزاته وخصائصه واستقلاله الذي يمنعنا من إدخالها ضمن الجغرافيا أو الأدب الجغرافي[3]، أو ضمن التاريخ[4]، أو ضمن الإثنوغرافيا[5]، أو ضمن الفن القصصي[6]، بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام القول بخلو كتب الرحلات من كل هذه المعارف، لكن وجود بعض المعلومات التاريخية لا يجعلها مؤلفا في التاريخ، ولا وجودُ بعض الإفادات الجغرافية يجعلها كتابا في الجغرافية وهلم جراً.

ثانيا - مكونات الخطاب الرحلي:

1 - أطراف الرحلة:

إن الرحلة حكي، وكل حكي يستلزم وجود أطراف ثلاثة: ذات حاكية، وخطاب مَحْكِي، وموضوع مَحْكِي عنه، ويمكن توضيح هذه المكونات في هذا الشكل:

الحاكي	المحكي (الحكاية)	المحكي عنه.
المؤلف الرحّالة	الخطاب الرحلي	السفر.

(1) شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص43.

(2) عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ص127.

(3) وهذا ما نجده عند كراتشكوفسكي في كتابة تاريخ الأدب الجغرافي العربي.

(4) وهذا ما نجده عند محمد المنوني في كتابه المصادر العربية لتاريخ المغرب.

(5) وهذا ما نجده عند محمد فهيم في كتابة أدب الرحلات.

(6) وهذا ما نجده عند شوقي ضيف في كتابه: الرحلات، وحسين نصار في كتابه: أدب الرحلات.

أ- فالحاكي أو الراوي في الرحلة هو المؤلف نفسه، وهو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرحلة، وتقوم بتلفيظ تلك الرحلة. وهذه الذات، في انتقالها عبر الأماكن المزورة، لا تنفصل عن ثقافتها ومعتقداتها ورؤيتها للعالم، وشأن الرحّالة شأن المساح الذي قال عنه الباحث عبد الفتاح كيليطو: "إن المساح ليس مسافرًا بدون أحمال، فهو يحمل أدوات لازمة تنظم عمله، والفضاء الذي يخترقه ليس مرئيا إلا عبر عيون شبكة ثقافية تحصره حصرًا وثيقًا". [1] ولهذا نجد الذات حاضرة باستمرار يمر من خلالها الحكي (الحكاية)، فيصطبغ بأحاسيسها وميولاتها وعواطفها ومرجعيتها الثقافية، وهكذا فعندما يرحل الرحّالة، لا يرحل بجسده فقط، بل بعقله وفكره وقلبه ووجدانه أيضًا.

إن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه إحدى خصائص الكتابة الرحلية، وهذا الراوي يكون حاكيا وموضوعا للحكي، فهو حاكيا عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد. [2]

ب- المحكي عنه، وهو السفر الذي أنجزه الرحّالة فعليا، وحديث الرحلة عن السفر جعلها تنتمي إلى "أدب السفر" ولكنها تختلف عن بعض أنماطه التي وظفت السفر بشكل أو بآخر.

هكذا يصبح السفر بنية مهيمنة من جهة، وهي من جهة ثانية بنية متحكمة وجاذبة لباقي البنى إلى الحد الذي تخضع فيه هذه الأخيرة لبنية السفر [3]، وبهذه الهيمنة التي تتمتع بها بنية السفر داخل الكتابة الرحلية يُصبح السفر هو الناظم لمختلف مكونات الرحلة الأخرى من سرد ووصف وأخبار وحكايات وأشعار ومعارف متنوعة، بيد أنه ينبغي الانتباه والتفريق بين السفر عندما يكون بنية مهيمنة وناظمة، وبين السفر عندما

(1) عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافة، ص15.

(2) ينظر: عبد النبي ذاكر، عتبات الكتابة، مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي، ص34.

(3) ينظر: عبد الرحيم مؤدن، أدبية الرحلة، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1996، ص26.

يكون بنية ومكوناً كباقي المكونات؛ في الحالة الأولى نكون أمام جنس الرحلة، وفي الحالة الثانية نكون أمام أجناس أخرى، قد تكون تاريخيًا أو سيرة ذاتية أو رواية أو غيرها. وهكذا أصبحت هيمنة بنية السفر "معيارًا نقديًا يتم فيه التمييز بين الرحلة وباقي نصوص السفر، بين الرحلة و"الحرْكة"*، بين الرحلة والدليل السياحي". (1)

إن هيمنة مكون السفر لا يعني أن الرحلة تخلو من باقي المكونات الأخرى، بل تعني أن السفر هو العنصر المؤطر لكل العناصر والمكونات الأخرى، ومن النادر جدا وجود رحلة اقتصر فيها مؤلفها على هذا المكون فقط.

بعد الوقوف عند طرفي عملية الحكي في حكاية الرحلة، وهما الذات الحاكية والموضوع المحكي، ننتقل إلى لب هذه العملية وقلبُها، وهو الخطاب الحكي، وستتم الإشارة في الحديث عنه إلى بنائه، ثم مكوناته.

جـ- الحكي أو الحكاية، وهو خطاب الرحلة، ومن المعلوم أن لكل خطاب طريقته الخاصة في البناء، بها يتميز عن غيره من الخطابات، وبما أن خطاب الرحلة موضوعه هو السفر الذي قام به الرحّالة، فإن "خطاب الرحّالة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه، وكلما انتقل الرحّالة في المكان واكب الخطاب هذه التحولات، وصولاً إلى النهاية (نهاية الرحلة)، والرجوع إلى نقطة الانطلاق، وبهذه المواكبة يكون خطاب الرحلة "عملية تلفيظ لفعل الرحلة. وبعملية التلفيظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة، ولكنها تستثمر جوانب منها، وتوظفها في خطاب مختلف". (2)

(*) الحرْكة: [بتسكين الراء] تحركات السلطة المخزنية بالمغرب الأقصى لأهداف عديدة عسكرية وسياسية واقتصادية.

(1) المرجع نفسه، ص21.

(2) سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ص200.

هكذا تكون طريقة بناء الخطاب وسيلة لتمييز خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات، وبواسطته أيضًا يمكن إخراج مؤلفات تصنف ضمن دائرة الرحلة من هذه الدائرة، ومنها، مثلا- "الترجمانة الكبرى، لأبي القاسم الزياني"*، فالسفر في هذا المؤلف ليس بنية مهيمنة، وليس بنية ناظمة لباقي بنيات الكتاب، وعليه فالخطاب فيه لا يسير مع سير الزياني في رحلاته الثلاث، فهو لا يبتدئ بالحديث عن لحظة الانطلاق، بل يبتدئ الحديث عن ميلاد المؤلف ثم شيوخه[1]، وبعد هذا سيأتي الحديث عن رحلته الأولى برفقة والده إلى أداء فريضة الحج، فتوقف بمصر لظروف اضطر معها إلى الرجوع، إن الحديث عن هذه الرحلة لا يمتد إلا على ما يقارب صفحتين ونصفا، مما يدل أن هدف الزياني ليس تدوين الرحلة، بلْ الإشارة إلى بعض الأحداث الهامة في حياته، ويكفي للتدليل على هذا قوله: "ولما بلغنا مصر، وتعين سفر الركب إلى الحجاز..."[2]، فالمؤلف هنا لم يحدثنا عن منطلق الرحلة، ولا عن المراحل التي مرَّ منها قبل أن يصل إلى مصر. وهذا صنيعه عند حديثه عن الرجوع. وصنيعه أيضًا في الرحلتين الباقيتين. إن مقصدية المؤلف ليست تدوين الرحلة وأحداثها، بل إن الرحلة كانت وسيلة للحديث عن أشياء أخرى، وبهذا لا يكون خطاب الكتاب تلفيظًا لرحلات الزياني، بدءا من نقطة الانطلاق، ورجوعا إليها، بل توظيفا لهذه الرحلات إلى جانب مكونات أخرى، مما يحيد بالخطاب عن جنس الرحلة إلى جنس آخر قد يكون الخطاب التاريخي، أو الجغرافي، أو هما معًا.

إن طريقة بناء الخطاب الخاصة هي ما يسميه الباحث عبد الرحيم مؤدن "نمطية التأليف" التي بها يتم إدخال كتابة ضمن جنس معين، أو إقصاؤه منها يقول: "ولعل شرعية انتساب

(*) أحد أعلام المغرب الكبار في عصره، ولد بفاس عام 1147هـ، وبها تعلم. اتصل بالسلطان محمد بن عبد الله، وبالمولى سليمان من بعده، ونال حظوة كبيرة حتى لقب بذي الوزارتين، توفي عام 1249هـ، وترك العديد من المؤلفات، أشهرها: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا.

(1) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا، حققه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء، 1967، ص56- 57.

(2) ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا، ص58.

الرحلة إلى الجنس المستقل ببنائه وخصائصه يعود إلى هذه النمطية في التأليف". [1]

2 - عناصر خطاب الرحلة:

بعد حديثنا عن بناء الخطاب في الكتابة الرحلية، نتحدث عن مكونات هذا الخطاب التي يمكن حصرها في:

2 - 1 المعرفة:

تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة، منها ما هو ديني وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو أدبي، وما هو اجتماعي... وغير ذلك، مما يجعل هذه الرحلة قبلة للعديد من الباحثين مختلفي المشارب؛ من أجل منح المعارف التي تهمهم والرحّالة، وهو يقدم هذه المعارف، إنما يسعى إلى إفادة القارئ بما يظنه مفيدا له. والمعرفة التي يقدمها الرحّالة تخضع لشخصيته وتكوينه الثقافي، وهكذا نجد الرحّالة المؤرخ يولي اهتماما أكبر للمعرفة التاريخية، والمتصوف يعتني كثيرًا بالمعرفة الصوفية وهكذا دواليك.

وتقديم المعارف في الرحلات ليس مستغربا، لأننا نجد كثيرا من الرحالين ينصون في مقدمات رحلاتهم على أن مقصديتهم هي إفادة القارئ بكثير من المعارف والإفادات، وبهذا تحقق الرحلة هدفها الديداكتيكي؛ إنها تسعى لتعليم بعض الأشخاص بعض الأشياء.

2 - 2 السرد:

لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه ما دامت تنقل إلى المتلقي أحداثًا وأفعالاً قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها. والسرد يبدأ مع بدء الرحلة، ويستمر إلى نهايتها، لتتكون المسيرة السردية من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات، ومقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى، والمسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد

(1) عبد الرحيم مؤدن، أدبية الرحلة، ص19.

ليفسح المجال لمكونات أخرى للاشتغال، وهكذا يوقف الراوي السرد ليقدم وصفا أو ليقدم معلومات ومعارف، أو ليسوق شعرا، وبعد الانتهاء من هذا يعود السرد إلى جريانه.

2 - 3 الوصف:

السرد والوصف نمطان خطابيان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن، وبعبارة أخرى: يتم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان، ويتم الوصف بالحديث عن المكان والأشياء أو الأشخاص. والوصف يتطلب انتباهًا ودقة ملاحظة من الواصف لكي "يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأن يصوّر الموصوفَ لك، فتراه نصْبَ عينيك". [1] والموصوف الذي يلفت نظر الرحّالة هو الأشياء الغريبة وغير المألوفة لديه، وتبعا لهذا ستختلف الموصوفات في الرحلات حسب الأوساط التي عاش فيها الرحّالة وما ألف مشاهدته فيها، لأن المألوف معروف لا يحتاج الرحّالة إلى إعادة التعريف به.

2 - 4 الشعر:

نجد كثيرًا من الرحلات تطفح بالكثير من الأشعار المختلفة المضامين، والمتفاوتة في القيمة الفنية، وهذه الأشعار إما من إبداع الرحّالة أو من إبداع غيره من الماضين أو المعاصرين الذين ينشدهم وينشدونه، والرحّالة وهو يحلي رحلته بالشعر إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالية التي يحتلها الشعر في الثقافة العربية، وكأني بالرحّالة وهو يورد هذه الأشعار، بين الفينة والأخرى، يسعى إلى إمتاع القارئ بهذا الخطاب الشعري الجميل، وإلى رفع قيمة رحلته باحتوائها عددًا وافرًا من الأشعار التي توظف في أسيقة مختلفة.

ثالثا - خصائص الكتابة الرحلية:

تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص تميزها عن الأجناس النثرية الأخرى، تتمثل فيما يلي:

---

(1) أبو الهلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة 1406هـ/1986م، ص128.

- **هيمنة بنية السفر**: التي تؤطر الأحداث وتَنْظمها مما سبق الإشارة إليه.
- **الذاتية**: تحضر ذات الرحّالة في رحلته حضورا بارزا، وليس هذا بمستغرب ما دامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات، وهكذا تحتل الذات المركز في الحل والترحال، وتصطبغ الرحلة بألوانها.
- **الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا**: وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة.
- **الواقعية**: الرحّالة الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدث عنهم، هم أيضًا واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف؛ فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض. وبهذه الخصيصة تتميز الرحلة عن الرواية والمقامة المبنيتين على الخيال.
- **دور الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق**: فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحّالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهي من حيث بدأ.
- **تعدد المضامين وتداخل الخطابات**: يشتمل الخطاب الرحلي على معارف متنوعة دينية وتاريخية وجغرافية وإثنوغرافية وأدبية... وتتداخل فيه خطابات مختلفة: الشعر والرسالة والحكاية والوصف والسرد... وهذا ما يجعله جنس الأجناس، أو محصلة الأجناس

رابعا - تعريف الرحلة:

لاشك أن تعريف الرحلة سيكون صعبًا، مثل تعريف أي جنس أدبي آخر، كالشعر والرواية، نظرًا لتعدد مضامينها وأساليبها، ولتداخلها مع خطابات أخرى. فالرحلة تشبه فناء بيت تنفتح فيه غرف متعددة: الجغرافيا والتاريخ، والتصوف، والأدب، والسيرة الذاتية، والتراجم، والحكايات، والرسائل، والكرامات، والشعر... وهذا كله يؤدي إلى صعوبة القبض على تعريف يجمع في حده زخم الخصوصيات والتنويعات في النصوص الرحلية العربية.[1] ولعل هذه الصعوبة هي التي

(1) ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص42.

حدَت ببعض معاجم المصطلحات إلى تجنب صياغة تعريف لهذا الجنس؛ فمعجم مصطلحات الأدب لم يعرض فيه صاحبه مجدي وهبة للرحلة بأي وجه من الوجوه، واكتفى فقط بإشارة مقتضبة للرحلة الخيالية[1]، أما جبور عبد النور، فرغم حديثه عن الرحلة لم يقدم تعريفا لها، بل اكتفى بكلام عام؛ يقول: "تمثل الرحلة في الأدب العربي منزلة رفيعة، وأصبحت من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم"[2]. ثم يشير إلى أن الإثارة التي تتميز بها الرحلة "متأتية من الوصف الطريف للواقع، والسرد الفني للمغامرة الإنسانية، والعواطف المحركة للبشر، ونابعة أيضًا من أنواع الشخصيات التي تبرزها للقارئ". [3] إن ما قدمه جبور عبد النور، في كلامه السابق، لا يمكن عده تعريف للرحلة بأي حال من الأحوال.

أما سعيد علوش، في معجمه، قد اكتفى بذكر المجال الذي تنتمي إليه الرحلة، وبذكر بعض أعلامها وجزء من اهتماماتها فقال: "أدب الرحلة:

1- هو أدب يدخل في درس "الصورولوجية، أي دراسة صور شعب عند شعب آخر.

2- من رواد أدب الرحلات في هذا الإطار: ج. م كاري، (J. M Carrey) ر. ر الطهطاوي، أنورلوقا.

3- يتبع (أدب الرحلات) إلى عادات وتقاليد وتأثيرات إقليمية". [4]

وقد سارت الموسوعة العالمية Encyclopaedia Universalis على النهج ذاته، فاكتفت بالإشارة إلى الخصيصة الأساسية للرحلة[5]، هي التنوع ذو المظاهر المختلفة، وأن الرحلة تدخل

(1) ينظر: مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، (د. ط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص165.

(2) عبد النور جبور، المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص121.

(3) المرجع نفسه، ص122.

(4) سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (د. ط)، المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، 1984، ص57.

(5) إن المعاجم والدراسات الأجنبية تدخل الرحلة ضمن les reits de voyage (قصص السفر).

ضمن السيرة الذاتية لأن المؤلف والراوي والرحّالة هم شخص واحد. وبهذا خلت هذه المعاجم والموسوعات من تعريف للرحلة، ولا نجد لها تعريفا إلا في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي- إنكليزي، فرنسي؛ يقول التعريف: "أدب الرحلات هو نوع أدبي يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته، من عمران، وأحداث، وعادات، وتقاليد، وغيرها". [1] والملاحظ على هذا التعريف أنه يخرج من الرحلات كثيرًا من الكتابات التي لم يكتبها أدباء، ويكون الجانب الأدبي فيها باهتا إن لم يكن منعدما، ورغم ذلك تدرج هذه الكتابات ضمن الرحلات. أما الشبكة الدولية للمعلومات **Internet** فقد أوردت تعريفا يقول: "إنه النص الذي يحكي فيه المؤلف ما شاهده في بلد آخر". [2] إن هذا التعريف فضفاض بحيث يمكن أن يدخل فيه ما ليس من جنس الرحلة كالتحقيق الصحفي **Reportage**. ويعرف إنجيل بطرس الرحلة بقوله: "أدب الرحلات إذن، هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفا له، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير". [3]

وهذا التعريف يشبه التعريف السابق مع زيادة تفصيل تتجلى في التنصيص على تسجيل المشاهدات والانطباعات، وفي الشروط التي ينبغي توافرها في هذا التسجيل: الدقة والصدق، وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير.

ولاشك أن هذه الشروط قد لا نجدها في كل الرحلات وعلى الرغم من ذلك تسمى رحلات، أي أن هذه الشروط ليست محددات تسمى الكتابة رحلة بحضورها، ولا تسمى كذلك

---

(1) إميل يعقوب، سيام حركة، مي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي- إنجليزي- فرنسي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1997، ص25.

(2) Reit de Voyage, Relation Reportage: www. cafe. umontreal. ca/genres/n- voyage. html
نقلا عن محمد الحاتمي، الرحلات المغربية السوسيّة بين المعرفي والأدبي، ط1، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات فريق البحث في التراث السوسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2012، ص30.

(3) إنجيل بطرس، "الرحلات في الأدب الإنجليزي"، مجلة الهلال، ع7، السنة 83، يوليو، 1975، ص52.

بغيابها. فالرحلة إذن: خطاب تنشئه ذات مركزية، هي ذات الرحّالة، تحكي فيه أحداث سفر عاشته وتصف الأماكن المزورة، والأشخاص الذين لقيتهم، وما جرى معهم من حديث، وغايتها من هذا الحكي إفادة القارئ وإمتاعه.

خامسا - تعريف أدب الرحلة:

الرحلة إذن ظاهرة أدبية، تتداخل فيها عدة عناصر أدبية وخارج أدبية، فهي الشكل النصي المفتوح وذلك نتيجة مجموع مكونات ثقافية واجتماعية وسياسية متداخلة، ونسيج متفاعل يشكل نصًا يتموقع في ملتقى علامات شديدة التجذر في حقول تعبيرية شتى، وعبر أنواع متقاربة ومتباعدة تحمل في العمق رابطًا خفيًا يوحدها ويجسد الأثر الشخصي للخبرات الإنسانية، الأمر الذي يعطي لهذا التعدد الأنواعي والبصمات المميزة بعداً منفتحا على شرايين وقنوات تتغذى من الأشكال الفنية النثرية ومن التاريخ والجغرافيا والمذكرات والتراجم... والاسترسال في السيّر والتعليقات التي تعطي للحكي طابعا مزدوجا بين التقرير والانسياب والوصف، مما يمد النص الرحلي برحابة تسع المعرفة بأسئلتها الممتدة حتى راهننا. ولعل من أهم خصيصات النص الرحلي المغاربي هو طغيان النصوص الحجية، الزّيارية المدونة، المطبوعة منها والمخطوطة، والتي سادت لفترة طويلة، وكانت حادة في أحكامها وتقييماتها؛ كتبها فقهاء أبقوها نصًا "يتيمًا" يشهد على أهم حادث في حياتهم من سير معروف وأحداث ومشاهدات وزيارات وأداء للفرائض، وما يتخلل ذلك من سرود وأوصاف وتضمينات... كما وجد النص السّفاري المغاربي- المغربي على وجه الخصوص- خلال القرن الثامن عشر بموازاة ما شهده المغرب وأفريقيا في تلك الفترة- من كثافة في الرحلات الأوربية.

سادسا - دواعي الرحلات:

هل يمكننا القول بأن تطور الإنسان مرتبط بترحله من مكان لآخر؟ وهل نستطيع الجزم بأنه لولا تنقل الإنسان بين مختلف الأصقاع لما تغير تاريخ العالم؟ إنهما تساؤلان يلحان على

أذهاننا ونحن نرصد العوامل والمؤثرات التي تحث الإنسان على الارتحال أو الهجرة من مِصر إلى غيره، وما من شك أن معرفة الآخر واستكشاف العالم المحيط بنا يشكل أبرز عوامل هذا التنقل، بيد أن حب المغامرة وراء المجهول، أو تحقيق أهداف مادية أو مثالية يظلان دافعين حاضرين في أغلب ما نقوم به من رحلات "ولكنها- أي الرحلات تكون- في الحالتين- استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل إلحاح للحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر بمعنى أن من شأن دوافع معينة أن تدعوا الإنسان: الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة، لكي يخترق حاجز المسافة، ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولا إلى غاية مباشرة أو تحقيق لهدف معين". [1] ولعل هذه الرحلات تشقي الإنسان وتغير من أنماط حياته وتفكيره وإنتاجه، إلا أنها ظاهرة طبيعية مميزة له، فالحركة رمز للتحرر بمفهومه الوجدي أو الطبيعي، والالتزام بمكان قار رمز للجمود المادي والعقلي، إن الترحل شقاء ولكنه شقاء في طياته نِعم، وهذا ما يبدو جليا في قول باشكال: "السبب الوحيد لشقاء الإنسان هو أنه لا يعرف كيف يستقر هادئا في حجرته". [2]

وبتأمل تاريخ العالم العربي والإسلامي نجد أن المغاربة كانوا أكثر تنقلاً وترحلاً من سائر العرب والمسلمين، وقد كانوا منذ القديم أهل سفر وترحال، ولعل الموقع الجغرافي ساعدهم على ذلك، حيث كان المغرب في أقاصي بلاد الإسلام، "ولهذا انتظمت رحلات المغاربة الأقطار المختلفة شرقًا وغربًا، بلاد إسلامية وغير إسلامية". [3] ويمكن أن نضيف إلى الدافع الديني، وموقع المغرب، الدافع العلمي، فالرحلة شرط من شروط اكتمال المعارف ووسيلة للقاء الشيوخ، أما الدافع التجاري يرجع الفضل فيه إلى الموقع الجغرافي فالمغرب ممر للطرق

(1) صلاح الدين الشامي، "الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة"، مجلة عالم الفكر، شتاء 1983، الكويت، ص13.

(2) المرجع نفسه، ص14.

(3) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ط2، منشورات عكاظ، المغرب، 2002، ص48.

التجارية الكبرى. وكانت أغلب رحلاتهم تيمم وجههـا شطر المشرق والأمـاكن الإسـلامية المقدسة، إذ علـى الـرغم مـن وقـوع بلادهـم في أقصـى الغـرب الإسـلامي إلا أنهـم كـانوا يتجشمون كل وعر في البر والبحـر قصـد زيـارة مهـد الـدين والفـائقين الأوائـل، والحـق أن الدارس المتأمل في تاريخ المغرب العربي الإسلامي يلفـت نظـره بشـدة هـذه الظـاهرة المميزة لأهل المغرب طيلة الوجود العربي الإسلامي بها.

إذن، ثمة دوافع متنوعة وراء قيام علماء الغرب الإسلامي بالرحلة، وربمـا تكـون هـذه الـدوافع وراء تحديد اتجاهات الرحلات وتصنيفها لديهم، "علمًا أن الدافع إلى الرحلـة والتجـوال هـو بُعـد المغرب والأندلس عن المشرق العربي، وبما أن بلاد الحجاز هي مهـد الحضـارة العربيـة الإسـلامية ومهبط الوحي، فـالحج كـان ولا يـزال رحلـة يتشـوق إلى أدائهـا النـاس عامـة والعلمـاء والفقهـاء خاصة"[1]، فالدافع الديني يعد من أقوى الدوافع المحركـة للـرحلات المغاربيـة إلى المشـرق العربـي خصوصا وأن بلاد الغرب الإسلامي عرفت جوا روحيـا خاصـا، حتـى أصـبحت المقـاييس الدينيـة متحكمة في كل نواحي الحياة. وإذا ما حاولنا إجمال أهم الدوافع والبواعث التي حثت المغاربة علـى سلوك هذا النهج لأمكننا القول إنها تتجلى فيما يلي:

1- إن وقوع المغرب في أقصى الغرب الإسلامي شكل باعث قويا للمغاربة قصد الترحل نحـو المشرق كي يؤكدوا أنهم عرب مشارقة وإن نأت بهم الديار منأى بعيدا، ذلـك أن الغربـة تدفع الإنسان – كثيرًا- إلى محاولة تحدي عقبات الزمان والمكان قصد التأكيد على الانتماء نحو المهد الأول له، فالمغاربة "من بُعدهم عن الحجاز ومنابت أصولهم في الشرق استمدوا مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والحنين إلى طيبة وسبقوا المشرقيين إليه". [2]

(1) نواف عبد العزيز الجحمة، رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي، ص24.

(2) محمد سعيد الدغلي، "الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي"، مجلة المناهل، ع 95، 96، شعبان 1433هـ، يوليو 2013، ص06.

2- إن الذهاب إلى الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين وأداء مناسك الحج وزيارة مهد العربية والعروبة، والنهل من منابع العلم المشرقية مثّل أبرز دافع كان يحث المغاربة على النزوح نحو الشرق بصفة مستديمة، وهذا ما نجده عند أغلب الرحّالة المغاربة في الرحلات الحجازية.

3- ومما شجع المغاربة على كثرة الترحل نحو المشرق هو انعدام ما يصطلح على تسميته بالحدود السياسية في عصرنا هذا، وتوافر وسائل المواصلات البرية والبحرية وتنظيمها الدقيق رغم ما كان يحدق بها من أهوال ومخاطر حتى ليظهر أن تواصل المشارقة مع المغاربة وقتذاك كان أشد كثافة، مما هو عليه الآن، ولعل هذا ما قصده الباحث عبد الحليم عويس حين قال: "وقد ساعد على نجاح هذه الظاهرة أن حركة الانتقال كانت مباحة بين العواصم الاسلامية على هيئة بحوث علمية، وتسابق في الحصول على إجازات العلماء والشعراء، وفي اقتناء الكتب الكبيرة والنادرة". (1)

سابعا - أنواع الرحلات:

وبفعل ما سبق ذكره من الدوافع الأساسية للرحلات عند المغاربة أبدعوا في كتابتها وصفا وتسجيلا فعرفوا أنواعا كثيرة، حاول الدارسون تصنيفها، وحصرها، لكنهم اختلفوا في تصنيفاتهم لها؛ فعيّن صلاح الدين الشامي ستة أنواع للرحلة، ثلاثة منها، ظهرت قبل الإسلام، وهي: رحلة التجارة، ورحلة الجهاد، والرحلة السفارة، والثلاثة الأخرى ظهرت بعد الإسلام، وهي رحلة الحج، ورحلة طلب العلم، ورحلة التجوال والطواف[2] يقول صلاح الشامي: "أن الرحلة اعتبارا من القرن السادس الهجري (العاشر الميلادي) انطلقت على أوسع مدى، وتجاوزت ديار المسلمين، على أمل أن تحقق أهدافا متنوعة؛ اقتصادية وهي تعمل لحساب التجارة، ودينية وهي تعمل لحساب فريضة الحج، وإدارية وهي تعمل لحساب

(1) عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ط2، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988، ص39.

(2) صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميداني، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1989، ص112- 114.

العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجي، وعلمية وهي تعمل لحساب العلم وطلب المعرفة". [1] أما محمد الفاسي فيعدد أنواع الرحلة خمسة عشر نوعًا، وهي الرحلات: الحجازية، والسياحية، والرسمية، والدراسية، والأثرية، والاستكشافية، والزيارية، والسياسية، والعلمية، والمقامية، والبلدانية، والخيالية، والفهرسية، والعامة، والسفارية. يمكن إدراج الكثير من هذه الأنواع تحت عنوان واحد شامل كالرحلات الرسمية التي تضم السياسية والسفارية، ويمكن التركيز على أكثر الأنواع شيوعا، كالرحلات العلمية، الدينية، والرسمية، والتجارية. [2]

1 - الرحلات الدينية:

يعد الحج الدافع الأساسي لدى المغاربة للقيام برحلات؛ لأنهم كانوا أبعد الناس عن الحجاز من جهة الغرب فكان شوقهم لأداء الفرائض وزيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعظم من غيرهم، وكانوا يتحملون في سبيل ذلك مشاق السفر، وأطلق على هذا النوع الرحلات الحجازية أو الحجية، وفيه من التراكم الكيفي والكمي، بحيث يُعدّ الصنف الأول من حيث الكتابة، فكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال، فالحج كان ولا يزال، رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط.

أما النوع الثاني فهي الرحلات الزيارية والصوفية، وهذا النوع يكتسي طابعا دينيا وروحيا، ويتمثل في زيارة العباد والزهاد والوعاظ، ويعتبر أبو بكر الهروي المتوفى سنة (611هـ/1215م) أشهر الرحالين المختصين في المزارات المتبرك بها، وقد دون تنقلاته تحت عنوان "الإشارات إلى معرفة الزيارات"[3]، وهو دليل لزيارة الأضرحة والمقامات المشيدة في البلدان الإسلامية، ولا تخلو كتابته من إفادات جغرافية وتاريخية عن الأقاليم التي مرّ بها، أما

(1) المرجع نفسه، ص114.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب (د. ت)، من المقدمة.

(3) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ص39.

المغاربة فلهم مشاركة بدورهم في مجال السيّاحة الدينية والدعوة للتربية الروحية في مختلف البلدان العربية والإسلامية، ومنهم من خلف لمريديه ولطلبته طريقته الصوفية.

2 - الرحلات العلمية:

تعود نشأة الرحلة في طلب العلم إلى بداية انتشار الإسلام، فمنذ "عهد مبكر ارتحل المغاربة إلى المشرق لأهداف تعليمية"[1]، فالرغبة في طلب العلم، استجابة لدعوة الشارع إلى التعلم، ولعل أبرز رحلة لطلب العلم في القرن الثاني الهجري ما نسبه الربيع بن سليمان إلى شيخه الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (204 هـ) ومما رواه عنه قوله: "وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد العجم وألقى الرجال، حتى كتبت وأنا ابن إحدى وعشرين سنة". [2]

و من رحلات الغرب الإسلامي ما "اتسمت بالطابع العلمي التوثيقي، يمكن أن نلاحظ هذا في رحلات، ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي، والبلوي، وابن خلدون، والقلصادي..." [3]، وهذا ما نوّه إليه عبد الرحمان بن خلدون في مقدمته الشهيرة، إذ قال: "والرحلة لابد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال" [4] فالهدف من الرحلة هو التزود بالعلم ومقابلة الشيوخ من العلماء، ولقد كانت الرحلات في العصور الإسلامية معيارا للحكم على مستوى العلماء.

---

(1) إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، رسالة دكتوراه، إشراف: الدكتور عبد الله العشّي، جامعة باتنة، 2006/2005، ص19.

(2) محمد بن إدريس الشافعي، رحلة الشافي، نشر محي الدين الخطيب، (د. ط)، المطبعة السلفية بالقاهرة، سنة 1350هـ، ص18.

نقلا عن محمد ماكامات، "أثر الرحالين في التقدم العلمي والحضاري"، مجلة فكر ونقد، ع87،، السنة التاسعة، مارس 2007، ص66.

(3) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ص80.

(4) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشّدادي، ط1، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص226.

3 - الرحلات التجارية:

كانت التجارة منذ القديم، أمرا يقتضي القيام بالرحلة والسفر البعيد من أجل تأمين سبل الحياة والكسب، ثم إن الموقع الاستراتيجي للبلاد العربية وكونها مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين القارات، شجع العرب على ممارسة الترحال من خلال ما سمي برحلتي الشتاء والصيف. أما المغاربة فقد قاموا برحلات من أجل التجارة، وهم أولئك الرحّالة الذين جابوا البحار والمحيطات، وسافروا عبر المفاوز والشّعاب ينتقلون وينقلون بضائعهم من بلد إلى آخر، وقد يقضون في متاجرتهم هذه سنين عدّة، وعندما ينتقلون إلى أوطانهم عائدين، يأخذون في سرد الحكايات والأحاديث في أسلوب شيق عما صادفوه أو شاهدوه، ويحكون عن البحر وأهواله وعن أسماكه ومحاره، وعن جزائره وقاطينها وطبائعهم وعاداتهم.

4 - الرحلات السياحية:

لقد سعى بعض الرحّالة إلى البحث عن الحرية، والاجتياز المكاني، حيث المهم هو السفر لا المكان الذي يرتحل إليه، فالدافع القابع وراء القيام بهذه الرحلة هو التمتع بالحياة والوصول إلى مواطن الجمال في كل مكان، والرغبة في اكتشاف ما لم تره العين، فيقوم الرحّالة بالسفر بمحض إرادته دون دافع خارج عن حدود الذات[1]، لذا جاءت بعض الرحلات لارتياد الأماكن ووجوب الآفاق والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز مضمون الحج أو المهام الرسمية ليجول الرحّالة في البلاد التي طالتها يد الإسلام وشاع فيها الأمن والاستقرار في أكثر أنحائها، يريد أن يرى ويعرف أشياء كثيرة، لذا قد تجتمع عدّة أسباب لرحلة ما، كما هو عند ابن بطوطة الذي زار أصقاعا عديدة بدافع الرغبة التي تفرضها الذات، وحب الإطلاع على الحضارات بثقافاتها المتنوّعة، وقد قضى من عمره شطرا كبيرا في الترحال والسفر، فكانت رحلته حجازية سياحية في مضامينها.

---

(1) ينظر: حسين نصار، أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1991، ص5.

5 - **الرحلات الرسمية:**

يضم هذا النوع كلا من الرحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية، وهي خاصة بدوافع عديدة منها: "تفقد أمر الرعية، أو تلبية طلب الحاكم في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة، أو الإتيان بأخبارها، فقد تكون في إطار التجسس أو الاستطلاع". [1] وعدت السفارة الشكل الرسمي للرحلات، حيث يوكل بها الرحّالة من قبل الحاكم، وهي الرسالة التي يتنافس على أدائها من يتكلفون بها، إذا كانت تقترن في نفوسهم برفعة الدولة الإسلامية وعلّو شأنها، فالسفير ممثل لدولته وعنوان لرقيها، وكانت السفارة لا تنقطع بين الدول العربية وما جاورها من الدول لأغراض ومقاصد متنوعة، إما لتصفية الأمور السياسية أو لمقصد الصلح، وقد تكون نتاج علاقات سياسية. [2] فالرحلات التي أرسلت لتأدية مهمة رسمية أو سفارة، بين الدول المغربية والدول التي ترتبط معها بعلاقات وثيقة، وهي رحلة خاصّة مموّلة من قبل السّلطة المركزيّة في الدّولة، وقد خطّط لها مسبقا ولها أهداف معلومة، وأغراض محددة منذ البداية. وقد جاب الرحّالة السفراء مشارق الأرض ومغاربها، وعند عودتهم تجد كتابتهم مليئة بأوصاف مثيرة عن ترتيبات الدول وأنظمتها، ومراسم استقبالها السُّفراء، والوفود الرسمية الوافدة، من أبهة ووجاهة وتقاليد خاصة تبرز قوتها ومكانتها، فضلا عن أوصافهم للمسالك والطُّرق وعادات الناس.

إذن، فالرحلات السفارية تتعلق بتبادل السفارات بين الدول الإسلامية أو بينهم وبين الدول الأجنبية، وغالبا ما يسكت الرحالون عن الهدف الأساسي من سفارتهم، ويكتفون بالإشارة إلى الرغبة في استمرار السلام والعلاقات الحسنة مع البلد المزور وعقد الصفقات التجارية، وتحدثت كتب التاريخ عن العديد من السفراء ودورهم المتميز في الدفاع عن

---

(1) سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: الشريف مريبعي جامعة الجزائر، 2006- 2007، ص 20.

(2) ينظر: نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص: 40.

بلدانهم وتحديد مواقفهم من حضارة الآخر، ونسوق على سبيل المثال من الغرب الإسلامي والمغرب رحلة السفير عبد الله بن العربي المعافري صحبة ابنه أبي بكر اللذين توجها إلى الخليفة العباسي ببغداد بعد موقعة الزلاقة، فخلف رحلته المعروفة "بقانون التأويل"، والسفير الثاني يحي بن الحكم الغزال إلى بلاد النورماند والقسطنطينية في منتصف القرن التاسع الميلادي، والسفير الثالث هو محمد بن عثمان المكناسي، وخلف ثلاث رحلات هي: (الإكسير في فكاك الأسير) والثانية تحمل عنوان (البدر السافر) والثالثة سماها: (إحراز المعلى والرقيب).